أسباب الهجرة إلى الحبشة

البعثة النبوية الشريفة:

كانت بعثته ﷺ إيذاناً لبدء مرحلة جديدة للبشرية قاطبة ابتداء من الرسول ﷺ حيث الأوامر الربانية توجهه نحو الغاية المرسومة له والبغية المنشودة، وبدأ الوحي ينزل عليه من فوق سبع سموات لكي يبدد الظلمات الحالكات، ويخرج البشرية من نفق مظلم ضيق إلى آفاق رحبة واسعة مليئة بالعلم والمعرفة المتصلة بقدرة الله القاهرة، خالق الإنسان مبتدأ بقوله تعالى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

كانت البشرية تتخبط في دياجير الظلمات وتسبح في بحار من الجهل والشرك والعصبية وعبادة الأصنام، يوجهها حب الذات والأنانية المفرطة المؤدي بسفك الدماء وفتك بالأبرياء، ووأد البنات، وهضم حقوق الضعفاء، وكانت تلك الجرائم تقع في الجزيرة العربية وخارجها بسبب غياب شرع الله وحكمه وتوجيهه، فأرسل الله رسوله محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم القريشي ﷺ هدى ورحمة للناس جميعاً، ليخرج الناس كل الناس من الظلمات المتراكمة إلى النور الإلهي الساطع، يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه:

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ

---

(١) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٣.

وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾[1].

إن هذه مهمة صعبة لرسول الله ﷺ، ولكنها تتم بعون الله تعالى وبإذنه.

ويقول الله عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

إن هذه الآيات وغيرها تشير إلى الحالة المتردية للبشرية، وبأن البشر قد اعتادوا الجهل والشرك واختفى الهدي الرباني.

وببزوغ شمس الإسلام ظهرت المفاجأة الكبرى وارتسمت الدهشة والحيرة على وجوه المشركين في بلدة مكة حتى فقدوا توازنهم، ولم يهتدوا إلى تفكير سوي تجاه الرسول ﷺ والوحي الذي ينزل عليه، فأصبحوا في حيرتهم وضلالاتهم يتخبطون، ومما يصور هول الصدمة وعنفوانها واضطراب عقول المشركين أنهم عكسوا الحقائق، وكذبوا أنفسهم، ونسوا أو تناسوا موقفهم من محمد ﷺ ألم يكونوا يسمون محمداً الصادق الأمين في جاهليتهم قبل أن يوحي إليه؟ فكيف يستصيغون ويبيحون لأنفسهم أن يقولوا هو كاذب أو ساحر أو مجنون أو شاعر؟ فكيف نجد لهذا اللغز تفسيراً معقولاً يمكن قبوله؟

ولقد دعا رسول الله ﷺ إلى التوحيد الخالص وحذر من الشرك تنفيذاً لأمر الله تعالى وطاعة له، يقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة الحديد: الآية ٩.

(٣) سورة القصص: الآيتان ٨٧، ٨٨.

ولقد كشف القرآن الكريم معايب الشرك بتنوع بديع يلفت الأنظار، ويـزلزل الأرض تحت أقـدام المشركين حتى أفقـدهم صـوابهم، ففي قصـة نبي الله إبراهيم عليه السلام.

يقول الله عز وجل: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] إلى أن وصل الحوار بين إبراهيم الخليل وبين قومه المشركين إلى السؤال المباشر ومخاطبة عقول المشركين لكي يصححوا أوضاعهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓـَٔابْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[2].

إنه أسلوب أخّاذ لا يترك مجالاً لمواصلة الجدال المتعنت مهما يكن عناد المشركين «لقد خضع الجبابرة أمام قوة الحق فقالوا إنكم أنتم الظالمون» ثم يوجه إبراهيم عليه السلام سؤالاً دامغاً مفحماً إن كانوا يعقلون ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

ويظهر القرآن الكريم عجز الأصنام والأوثان وعدم قدرتها على الخلق والإبداع، وعجزها عن المقاومة والدفاع عن نفسها ولو كان المهـاجم ذبابـاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٥٨، ٥٩.
(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٦٢، ٦٣.
(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٦٦، ٦٧.
(٤) سورة الحج: الآية ٧٣.

وعند توجيه مثل تلك الأسئلة العلمية إلى المشركين لم يكونوا يجدون أجوبة معقولة، بل كانوا يتهربون من مواجهة الحقائق الناطقة والحق المبين الذي لا غموض فيه إلى الأوهام والأباطيل الخادعة مثل السراب فلم يجدوا أمامهم إلا التشبث بأفعال الآباء والأجداد وهو التقليد الأعمى، ولا شك أن هذا موقف الضعفاء ومنطق الجبناء الذين لا يقوون على اعتراف بالحق المر ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، وهو موقف المترفين مع رسل الهداية وحملة ميزان العدل.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

ويلجأ المترفون إلى مسلك الجحود وإنكار الوحي بكل وقاحة وبدون التواء أو مراوغة أحياناً، إذا أحسوا حرجاً كبيراً لا مخرج منه أمام أتباعهم، فالآية التالية تذكر موقفاً للمشركين أعلنوا كفرهم بما جاء به الرسل عليهم السلام بدون حجة ولو كانت ضعيفة وبدون أي مصوغات ولو كانت زائفة كما رأينا في المشاهد السابقة، لأن القرآن معجز في بيانه مفحم في فصاحته وبلاغته، وبهذا يحاصر المشركين فلا يجدون مخرجاً غير الرفض والعناد: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[2]. يقول الله عز وجل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٣.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٤.
(٣) سورة لقمان: الآية ٢١.

تلك دعوة الرسل عبر القرون، فالأنبياء وإن تباعدت أزمنتهم وأمكنتهم فالحق يجمعهم وصوت الإيمان يوحد أهدافهم فتخرج كلماتهم من مشكاة واحدة فالحق واحد لا تعدد فيه ونداءهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

وتقابل هذا النداء الرباني الذي يوجه الإنسان إلى خالقه بكل قواه مواقف التقليد بالآباء وعبادة غير الله سبحانه، والتكبر والتعالي على الله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[2].

بعد هذه الصورة الواضحة المشرقة حول حقائق التوحيد نرى القرآن المكي يبرز قضية أخرى لها علاقة وثيقة ألا وهي الإيمان باليوم الآخر، والحديث في هذا الجانب مستفيض في القرآن، إن ذكر الجنة ونعيمها ولذتها، والنار وشقائها وأهوالها له أهمية كبرى لكي يفكر الإنسان ألف مرة بكل فعل يقوم به.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾[3].

إن الإنسان مهما عاش في الدنيا الفانية فإنه لا محالة آيل إلى مصيره المحتوم ويحاسب على أعماله كلها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، مصداقاً لقوله

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.
(٢) سورة الصافات: الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.
(٣) سورة العاديات: الآيات ٩ ـ ١١.

تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

وكانت طائفة من المشركين ينكرون البعث والجزاء، فحاولوا تسفيه الرسول ﷺ، واستهزءوا بالوحي وبصفة خاصة كل ما له علاقة بالبعث والجزاء وإحياء الموتى ولكن ذلك لم يجد نفعاً، بل كشف القرآن ضعف حججهم واعوجاج منطقهم بأدلة عقلية منطقية، يقول الله عز وجل في هذا الشأن: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[2].

تلك كانت طبيعة الصراع فمنذ الأيام الأولى من البعثة النبوية والمشركون يفقدون أعصابهم لسماع نداء الوحي، ولكن الدعوة ظلت فترة من عمرها سرية لا تتجاوز حدود الاتصالات الفردية المعتمدة على العلاقات الشخصية بين الأفراد ومدى الثقة المتبادلة، وبهذا لم ينتشر خبرها انتشاراً واسعاً، وفي الفترة المشار إليها كسبت الدعوة اللبنات الأولى من المهاجرين الذين آمنوا بالله وبرسوله، ورغم السرية المطلقة إلا أنها انتشرت في مكة وخصوصاً في بيوتها المهمة لكي تنطلق الدعوة في المرحلة القادمة بقوة كبيرة، ولذلك لم يتعرض الصحابة لتعذيب يذكر في فترة السرية لأنها غير ظاهرة ولم

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان ٧، ٨.

(٢) سورة يس: الآيات ٧٧ - ٨٣.

تلفت أنظار المشركين إلا بحدود ضيقة واستمرت بهذا الأسلوب ثلاث سنوات تقريباً.

الجهر بالدعوة ونتائج ذلك!

انقضت ثلاث سنوات كان الاتصال كما أشرنا إليه مقصوراً على من يثق به الرسول ﷺ والقلة المؤمنة، ومع ذلك انتشر الإسلام في مكة حتى شاع وأصبح حديث الناس ودخل في الإسلام جمع كريم من أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمر الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه»[1]. ثم قال الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لما أنزل الله عز وجل وأنذر عشيرتك الأقربين، قال: أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ يا بني عبدالمطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم، أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟!! قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾»[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام علق عليها وخرّج أحاديثها عمر عبدالسلام تدمري.

(٢) سورة الحجر: الآية ٩٤.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ٢١٤ ـ ٢١٦.

(٤) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني، =

إن صعود الرسول ﷺ على الصفا واختياره كلمة «يا صباحاه» له دلالة واضحة على عزم الرسول ﷺ على إحضار أكبر قدر ممكن من المشركين في مكان واحد ليبلغهم رسالة ربه عز وجل، وليضع الأمر الجديد بين أيديهم ليكونوا على بينة من أمرهم بعد كذلك.

من الناحية الثانية أشهدهم على صدقه وطهارته فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم... صدقتموني. فقالوا: نعم. إنها شهادة صدرت عن المشركين في بداية المواجهة لأنهم لم يجربوا عليه الكذب قبل ذلك، وهذا دليل صدق النبي ﷺ وصدق الرسالة فالذي لا يكذب على البشر لا يتصور أن يفتري الكذب على الله الخالق الجبار.

إنها خطوة مهمة في طريق الدعوة وهي مرحلة جديدة من مراحل الدعوة، قدّر وقتها ربّ العالمين وأمر رسوله بالصدع ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ونفذ أمر ربه كما أمر.

أما ما يترتب على ذلك من إيذاء وشتم وتعذيب إلى آخر ما هناك من المصائب والمحن. فلم يعبأ به عليه السلام. بل واجهها بكل شجاعة وقوة وصبر على ما أصابه في سبيل الله عز وجل.

ومضى في طريقه عبر المصاعب والشدائد التي تنوعت وتعددت أساليبها فلم يبرح من على الصفا حتى سمع من أقرب الناس إليه «أبو لهب» ما يسيئه ويمس كرامته وشرفه وهو ما لم يسمع منه ومن أمثاله قبل النبوة.

وبدأت محنة الرسول ﷺ ومن آمن به من الرجال والنساء بعد ذلك اليوم، فبينما هو يستمر في دعوته ويجاهر بها ويظهر دين الله عز وجل في مكة المكرمة بدون أن يبالي أحداً من البشر كائناً من كان نجد أخبار الرسول العظيم ﷺ تنتشر انتشار النار في الهشيم حتى أصبح الرسول ﷺ الشغل الشاغل لأهل مكة وكل من له علاقة بهذه المدينة، فتحولت الدعوة من قضية

= وترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا، الجزء العشرون، ص٢١٦، ط. دار الشهاب، القاهرة.

سرية لا يعلمها إلا عدد محدود من سكان مكة إلى قضية علنية شعبية تعرفها الجماهير بكل طبقاتها الأسياد والعبيد الأغنياء والفقراء الكبار والصغار، وكأنها تتحدى كل شيء ألفه المكيون سادة العرب آنذاك، واعتبروها إهانة لأشخاصهم وتسفيهاً لعقولهم ونقصاً لمعتقداتهم، فبدأ أمر الإسلام يؤرقهم «حتى شرى الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ، بينها، فتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضاً عليه»[1].

موقف أبي طالب من زعماء المشركين:

لقد بذلت قريش جهداً جهيداً لإقناع أبي طالب لتغيير موقفه من ابنه رسول الله ﷺ، ورغم المحاولات المتكررة من زعماء المشركين إلا أنها لم تنجح ولم تؤد أغراضها وكان لأبي طالب موقف نبيل خالف فيه المشركين ودافع عن رسول الله ﷺ بكل غال ورخيص.

وبلغ الأمر بين الطرفين حد الجفوة فالتهديد بالحرب المدمرة التي لا تبقى ولا تذر، وتوعدت قريش لمنازلة محمد ﷺ وأبي طالب على حد سواء، فقال زعماء المشركين: «يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين»[2].

هذه الجمل زلزلت أبا طالب وأوقعته في حرج وحيرة عظيمة وجعلته أمام خيارين أحلاهما مر.

الخيار الأول: أن يفارق قومه وعشيرته التي يعتز بها ويفتخر بقوتها وسؤددها بل هو واحد من زعمائها وكبير أشرافها.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، ص ٢٩٨، ط. الثانية ١٤٠٩ هـ، تحقيق عبدالسلام التدمري.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، المجلد الأول، ص ٤٧٤، ط. عام ١٤٠٣ هـ، دار المعرفة، بيروت.

الخيار الآخر: أن يخذل ابنه ويتخلى عنه ليصبح فريسة سهلة ولقمة سائغة للمشركين، وهو أمر لا يتناسب مع شرفه ومركزه الاجتماعي في الوسط القرشي، ولعل هذا لو فعل سيلبسه ثوب الذل والعار الأبدي، ويخسر شرفه وفخاره، فماذا يفعل الشيخ والموقف جد خطير.

فلا شك أن أبا طالب وازن بين هذا وذلك فلم يتخذ القرار بنفسه بل عزم على أن يعرض الأمر كله على رسول الله ﷺ فعسى أن يجد مخرجاً من الأزمة أو حلاً للمشكلة علماً بأن أبا طالب لم يكن مؤمناً بالرسول ﷺ بل بقي على شركه، وانطلاقاً من هذا لعله يأمل أن يجد حلاً من رسول الله ﷺ يتمثل في تغيير موقفه من المشركين أو تخفيف لهجته ضد الأصنام والآلهة التي يعبدونها من دون الله.

فنادى أبو طالب ابنه قائلاً: «يا ابن أخي إن قومك قد جاءوا فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق»[1].

على ما يبدو كانت هذه محاولة من أبي طالب لتفادي الحرب بينه وبين قومه بسبب محمد ورسالته، فلعله كان ينتظر من محمد تغيير موقفه لأنه لم يكن مؤمناً به، وعلى هذا لا يستطيع أبو طالب أن يفهم معنى الوحي والرسالة وسر تشدد الرسول ولو نجح في مسعاه لكان كسباً عظيماً له لأنه بهذا كان يرضي ابنه ويكسب ود قومه بدون خسارة في هيبته ومهانة لرياسته وشرفه، ولكن هيهات أن يحقق ذلك.

فبمجرد شعور الرسول ﷺ بضعف عمه أبي طالب أمام الضغوط الهائلة، وأنه ضعف عن نصرته كان جوابه كافياً لإظهار قوة إيمانه وصلابته على دينه وعدم تردده، وهذا الموقف كان مناسباً لعمه ليعرف حقيقة الموقف فجاء جوابه ﷺ كالآتي: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هاشم، الجزء الأول، ص ٢٩٩، عبدالسلام تدمري.
(٢) تاريخ الطبري، المجلد الأول، ص ٣٢٦.

هذه العبارة أصابت قلب أبي طالب فأثرته كأنها تحمل في طياتها قوة جبارة غيرت موقف أبي طالب وبدلت تفكيره بصورة جذرية فخرج من التردد والتلكؤ إلى اتخاذ القرار الخطير الذي كان له ما بعده فثبت عليه فلم يتزحزح عنه طول حياته، بل مات وهو يدافع عن الرسول ﷺ.

ومما لا شك فيه أن أسلوب الرسول ﷺ وقوة بيانه المبني على اليقين أثر نفسية عمه فكان جوابه واضحاً لا لبس فيه: «أقبل يا ابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ.

فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»[1].

وبدأت المفاصلة بين أبي طالب ومن شايعه وناصره للدفاع عن الرسول ﷺ، وبين بقية المشركين حتى حاولوا قتل الرسول ﷺ حين عرضوا على أبي طالب عمارة بن الوليد مقابل تسليم أبي طالب محمداً إليهم لقتله، وهذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الحيرة والدهشة التي أصابت عقولهم في تلك المرحلة من تاريخ الدعوة. كيف يتوقعون من أبي طالب أن يقبل منهم عرضاً يؤدي إلى قتل ابنه الذي يحبه من كل قلبه ورباه حتى أصبح رجلاً. فهو إن لم يؤمن بدينه ولم يتبعه بسبب الخوف من العار كما قال آخر حياته إلا أن محمداً ﷺ ابنه، فرابطة القرابة وصلة الأرحام كان عاملاً قوياً في حس أبي طالب، فلقد بذلت قريش آخر محاولة مع أبي طالب فقالوا: «يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله فخذ فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، واسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامنا فنقتله، فإنما هو رجل برجل!

قال: «والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني فتقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً»[2].

---

(١) تاريخ الإسلام «السيرة» للذهبي، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، المجلد الأول، ص ٤٧٥، ط. عام ١٤٠٣ هـ، دار المعرفة، بيروت.

قريش تظهر عداوتها للمسلمين:

تلك الخيبة التي أصابت المشركين، وذلك اليأس من تسليم محمد إليهم، أدى إلى موقف متصلب من جانب المشركين حتى أعلنوا حالة الحرب ضد أبي طالب وحلفه بسبب موقفه السابق فاتخذوا قراراً خطيراً لتعذيب المسلمين، والفتنة عن دينهم بالقوة والبطش، لا بالحوار والإقناع «فتذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين، يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب»[1].

وجمع أبو طالب أنصاره للقتال دون رسول الله ﷺ، ولقد قال في هذا شعراً يشرح فيه موقفه من رسول الله ﷺ وموقفه من الدين الجديد وتعهد بالدفاع عن النبي ﷺ. فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفيناً
فامض لأمرك ما عليك غضاضة ... أبشر وقر بذاك منك عيوناً
ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ... فلقد صدقت وكنت قبل أميناً
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذاري سبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وفي هذا دلالة على أن الله ينصر دينه كيفما يشاء. وعلى المؤمنين أن يعتبروا بموقف الرسول ﷺ، وكيف أن الله قيض له أبا طالب للدفاع عنه والذود عن أتباعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهو مخالف إياه غير مؤمن به وبدينه كما ثبت في الصحيح. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[2].

فتلك حماية الله سبحانه وتعالى ورعايته فالله سبحانه لا يضيع أولياءه بل

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٠١.
(٢) سورة الطلاق: الآية ٣.

يحفظهم ويكلؤهم، فما عليهم إلا أن يستقيموا على الحق مهما تكن الظروف، أما ما سوى ذلك فعلى الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[1]. وإذا أراد شيئاً هيىء أسبابه.

أساليب حرب الإسلام:

بعد أن أوضح النبي ﷺ أمر الدعوة لعموم المشركين في مكة، وبعد أن انتهت كل المحاولات التي بذلها المشركون بالفشل والخيبة سواء تسليم أبي طالب محمداً إليهم، أو منعه من التعرض لآلهتهم بما يسوءهم، بعد هذا كله اتخذوا موقفاً من المؤمنين ونفذوا كل التهديدات بل أجمعوا على أذاهم وتعذيبهم أو حبسهم أو تشريدهم ظناً منهم بأنهم قادرون على إخماد نور الإيمان بالقوة وإخراج المؤمنين من الإسلام، وسلكوا للوصول إلى ذلك الهدف الخبيث كل الدروب والسبل، واستخدموا أبشع الوسائل والأساليب المادية والمعنوية، فلم يتركوا وسيلة لتحقيق مأربهم مهما تناهت في الخسة والنذالة، أو بعدت عن الفطرة السوية. فمن الطرق لحرب الإسلام ما يلي:

أ ـ الاستهزاء بالله وبالرسول ﷺ:

الاستهزاء ضرب من الحروب النفسية للحيلولة بين الإسلام وبين عامة الناس وخاصة تلك الطبقة التي لا تعرف بواطن الأمور، وهو نوع من التشويش، وإخلال التوازن لدى المستمع، وهي محاولة رخيصة لإلقاء اليأس في قلب النبي ﷺ.

وفي القرآن الكريم نماذج من استهزاء المشركين، وهو طريقة من طرق تنفير الناس عن هذا الدين الحنيف، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ

(١) سورة غافر: الآية ٥١.

إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾.

ويحاول المشركون تشكيك نبوة محمد ﷺ ويسخرون منه، ويستبعدون كون الرسول من البشر يأكل ويمشي في الأسواق، أو يطلبون منه بإتيان خوارق العادات ويتهمونه في نهاية المطاف بالسحر والشعوذة ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[1].

تلك الأساليب القذرة والمطالب السخيفة لم تجد نفعاً ولم تحل بين الناس وبين الإيمان بهذا الدين، ولم تنفر المؤمنين من ساحة التوحيد، بل ازدادوا تمسكاً بدينهم، وحباً لرسول الله ﷺ. بل ازداد الناس إقبالاً على الدين يوماً بعد يوم فدخلت بيوت رؤساء قريش وزعمائها الإسلام فلم يستطيعوا الحيلولة بين الإيمان وبين أبنائهم وبناتهم حتى طغى ذكر الإسلام على ما سواه في جنبات مكة وشعابها، وفشى الحديث في كل منزل وخلت المجالس إلا من ذكره والحديث عنه، وأصبحت نوادي قريش لا تعرف حديثاً غير حديث الإسلام، وكأنهم مجبورون على نشر الإسلام بطريقة أو بأخرى.

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيها جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

ب ــ اجتماع قريش على إيذاء الرسول ﷺ وصحبه:

لقد أجمع المشركون على إيذاء رسول الله ﷺ وكل من آمن به بشتى

(١) سورة الإسراء: الآيات ٤٦ ـ ٤٩.

الوسائل «ثم اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه آباءهم على كفرهم»[1].

فما دام المجتمع المكي عشائري من الدرجة الأولى بغياب السلطة المركزية التي تقود المجتمع وتوجههم، فإن الرأي رأي القبائل والمسئولية ملقاة على عاتقها مجتمعة ومن هنا اتفقت القبائل على أن تتولى كل قبيلة تعذيب من آمن برسول الله ﷺ تفادياً عن المشكلات التي يمكن أن تنجم عن تعذيب شخص بيد قبيلة أخرى من الثارات، وهذا يؤكد إن منطق القبيلة والثأر لها كان هو المهيمن على الأجواء كلها. «ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب، والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، ومنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم»[2].

كان نصيب المستضعفين من الأرقاء ونزّاع القبائل من العذاب وافراً، وتجرعوا كأس التعذيب أكثر من غيرهم لعدم توفر الحماية اللازمة لهم، ومما ضاعف محنهم أن عدداً كبيراً من عبيد مكة وضعفائها سارعوا إلى دخول الإسلام، وتحدوا أسيادهم بقوة إيمانهم مما هز نفوس المشركين وخاصة سادة قريش الذين امتلأت قلوبهم بكراهية الرسول ﷺ والذين اتبعوه وآمنوا به، كما أن السادة أغاظهم موقف أرقائهم وجرأتهم القوية.

ومن هنا لجئوا إلى التعذيب الوحشي الذي تقشعر منه الأبدان وتشمئز منه النفوس السليمة والطباع السوية.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الأول، ص ٣١٩، تحقيق عبدالسلام تدمري.

(٢) الروض الأنفق للسهيلي، الجزء الثاني، ط. عام ١٣٩٨ هـ، دار المعرفة، بيروت، ص ٦٧.

انظر إلى الصحابي أبو فكيهة «أسلم بمكة، وكان يعذب ليرجع عن دينه فيأبى، وكان قوم من بني عبدالدار يخرجونه نصف النهار في حر شديد، في قيد من حديد، ويلبس ثياباً، ويبطح في الرمضاء، ثم يؤتي بالصخرة فتوضع على ظهره حتى لا يعقل، فلم يزل كذلك حتى هاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة فخرج معهم في الهجرة الثانية»[1].

وهذا صحابي آخر من السابقين الأولين بلال بن رباح رضي الله عنه وهو واحد من الذين تعرضوا للتعذيب من فئة الضعفاء الذين لا يجدون من يدافع عنهم في مكة بسبب كونه من السابقين الأولين بل كان واحداً من السبعة الأولى كما تذكر هذه الرواية أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وبلال، وصهيب، والمقداد.

وأما النبي ﷺ وأبو بكر فمنعهما الله بقومهما، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أذراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا وأتاهم ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله رضي الله عنه، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد»[2].

ويروى لنا عمار بن ياسر رضي الله عنهما قصة إسلامه، وما لقيه بعد ذلك من العنت والشدة فيقول: «لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم، ورسول الله ﷺ فيها فقلت له: ما تريد؟ قال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد ﷺ فأسمع كلامه، قال: وأنا أريد ذلك، فدخلنا عليه فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون، وعن عروة بن الزبير قال: كان عمار من المستضعفين الذين يعذبون بمكة ليرجع عن دينه، والمستضعفون قوم لا عشائر لهم بمكة وليست لهم منعة ولا قوة، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الرابع، ص ١٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، الجزء الأول، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨، ط. الرابعة.

بأنصاف النهار ليرجعوا عن دينهم، فكان عمار، وصهيب، وأبو فكيهة، وبلال، وعامر بن فهيرة، وقوم من المسلمين يعذبون حتى لا يدرون ما يقولون، وفيهم نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]. وهاجر عمار إلى أرض الحبشة»[2].

ولكي نتصور أو نتخيل من شدة ما أصاب المسلمين نقرأ سوياً النص التالي: «عن أبي عبيدة بن محمد بن عامر بن ياسر، قال: أخذ المشركون عماراً، فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى النبي ﷺ قال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله، والله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان، قال: فإن عادوا فعد»[3].

لقد صبر هؤلاء الكرام، وتحملوا الأذى والمشقة بصفاء قلب لم يتكدّر بطمع الدنيا ووساوس الشيطان، لقد تحملوا المصائب بنفس راضية أبية لم تعرف التزحزح عن اليقين مهما قست عليهم الملمات. ولذلك ترى عماراً يأتي رسول الله ﷺ ليخبر خبره وهو نادم على موقفه من ناحية، مطمئن القلب مؤمن بالله ورسوله من الناحية الأخرى، علماً بأن الضرورة ألجأته إلى ذلك الموقف فيجد عفو الله أوسع ورحمته وسعت كل شيء «فإن عادوا فعد» أي فإن عادوا إلى التعذيب فأعطهم ما يريدون ما دام القلب مطمئناً عامراً باليقين والإيمان، إنها الضرورة التي تتناسب مع الضعف البشري لكي يستخدمها الإنسان عند اللزوم لتخفيف محنته كلما أمكن له ذلك والضرورة تقدر بقدرها ولا

---

(١) سورة النحل: الآية ٤١.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الثالث، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠.
تختلف الروايات حول هجرة عمار بن ياسر إلى الحبشة، فليست هجرته متفقة عليها بين أهل السير والمؤرخين الذين تناولوا موضوع الهجرة إلى الحبشة.

(٣) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، الجزء الأول، ص ٤١١، ط. الرابعة. أخرجه الحاكم ٢/٣٥٧.

يتوسع أكثر من ذلك، وما دام الهدف الذي يسعى إليه الإنسان سليماً ونفسه مطمئنة بالإيمان فلا ضرر في استعمال تلك الضرورة، فالضرورة هنا تبيح المحظورات، قال الحافظ ابن حجر في الإصابة عند ترجمة عمار بن ياسر: «واتفقوا على أنه نزلت فيه هذه الآية الكريمة: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]».

ج ـ الحبس والضرب والتجويع:

الحبس كان وسيلة قهر وإذلال وما زال، استخدمه المشركون لمحاربة الإسلام، وكعقاب مؤلم، وخاصة لدى أبنائهم وإخوانهم الذين أسلموا ليفتنوا عن دينهم، ولقد تعرض للحبس أكثر من صحابي في مكة «لما كثر المسلمون وظهر الإيمان وتحدث ثار ناس كثير من المشركين من كفار قريش على من آمن من قبائلهم، فعذبوهم وسجنوهم، أرادوا فتنتهم عن دينهم»[2].

كما أن الضرب المبرح كان يحدث أحياناً بين الوالد وولده، يستعمل الوالد المشرك القوة لإخراج ولده عن الإسلام، ويقطع عنه الماء والأكل مدة من الزمن كوسيلة فعالة في تصوره وكمحاولة يائسة، ولكن كل هذا لم يغير من واقع المسلمين شيئاً يذكر. أنظر إلى الصحابي الفاضل خالد بن سعيد بن العاص الذي تعرض لأبشع أنواع التعذيب النفسي والجسدي، والمضايقات المستمرة، والمقاطعة من قبل عائلته التي تربى فيها باراً محبوباً، ومع هذا كله وقف خالد بعزم المؤمن أمام المغريات والتهديدات وصبر صبر المؤمنين الصادقين، وحطم كبرياء المشركين من عائلته، فلم يخضع ولم يذل للطغيان، بل ظل متمسكاً بإيمانه معتصماً بحبل الله المتين وتحدى والده ومن معه رغم كل شيء.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٦.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الثالث، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

وكان إسلام خالد بن سعيد قديماً، وكان أول أخوته إسلاماً، «وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه من بقي من ولده ممن لم يسلم، ورافعاً مولاه، فوجدوه، فأتوا به إلى أبيه، فأنبه وبكته وضربه بمقرعة في يده فكسرها على رأسه ثم قال: اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه قومه، وما جاء به من عيب آلهتهم، وعيب من مضى من آبائهم؟ فقال خالد: قد صدق والله واتبعته، فغضب أبو أحيحة ونال من ابنه وشتمه ثم قال: اذهب يا لكع حيث شئت، فوالله لأمنعنك القوت، فقال خالد: إن منعتني وإن الله يرزقني ما أعيش به، فأخرجه، فقال لبنيه: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به مثل ما صنعت به، فانصرف خالد إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه، ويكون معه.

وفي رواية أخرى: «كان إسلام خالد بن سعيد بن العاص ثالثاً أو رابعاً وكان ذلك ورسول الله ﷺ، يدعو سراً وكان يلزم رسول الله ﷺ، ويصلي في نواحي مكة خالياً فبلغ ذلك أبا أحيحة فدعاه فكلمه أن يدع ما هو عليه، فقال خالد: لا أدع دين محمد حتى أموت عليه، فضربه أبو أحيحة بقراعة[1] في يده حتى كسرها على رأسه ثم أمر به إلى الحبس وضيق عليه وأجاعه وأعطشه حتى لقد مكث في حر مكة ثلاثاً ما يذوق ماء فرأى خالد فرجة فخرج فتغيب عن أبيه في نواحي مكة حتى حضر خروج أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة في الهجرة الثانية فلهو أول من خرج إليها»[2].

ولقد تعرض عدد لا يستهان به من السابقين الأولين للتعذيب والتنكيل، وذاقوا مرارته من قبل أقربائهم وعشائرهم بل من آبائهم وأمهاتهم ولم يكن الأمر منحصراً بالطبقة المستضعفة والإرقاء. بل من الذين عذبوا وشردوا أشخاص من أقوى بيوت قريش نسباً ومكانة لأن الذين يمارسون التعذيب هم أقرب الناس إلى المؤمنين كما سبق ذكره، وهذا يدل على موقف قريش وعداوتها وحنقها على العصبة المؤمنة.

---

(١) القراعة القداحة التي تدري بها النار، المعجم الوسيط ٢/٧٢٨.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الرابع، ص ٩٤ ـ ٩٥.

ولقد أدرك المسلمون هذا الموقف المتعجرف ونتائجه المرتقبة، مما جعلهم يخفون إسلامهم ولا يبدونه، لكي لا يتعرضوا لمثل ما تعرض من سبقوهم بالإيمان لأن المعاناة الشديدة لإخوانهم ماثلة أمامهم دوماً.

فإسلام المرء والتحول من الشرك إلى الإيمان قضية مصيرية للطرفين، مصيرية للمؤمنين، لأنهم خرجوا من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الأوهام المظلمة إلى حقائق ناصعة لينالوا رضى الله سبحانه وتعالى ولينجوا من عذاب الله وعقابه يوم الدين ويدخلوا الجنة خالدين فيها أبداً.

ومصيرية للمشركين لأنهم يرون بأم أعينهم أن مآل مكة وأهلها إلى الدين الجديد الذي يبشر به محمد بن عبدالله ﷺ، وأن الأصنام والأوثان وتقاليدالآباء والأجداد، وكل أمر من أمور الجاهلية قد أخذ ينهار تدريجياً، ولن تستطيع تلك التقاليد البالية الصمود أمام ضربات الحق المدفوعة بقوة الإيمان، المبنية على الحقائق الواضحة، وعلى البرهان القاطع مما جعل المشركين يفقدون صوابهم ووعيهم، فأصبحوا عاجزين عن المقاومة من حيث العقل والمنطق، وباتوا يرددون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

ولمزيد من الإيضاح بقصد الوقوف على نماذج من السابقين الأولين ومن أوسط بيوت قريش الذي عذبوا نفسياً وجسدياً تابع معي قراءة جمل من ترجمة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبدمناف رضي الله عنه، «هو أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم قديماً والنبي ﷺ في دار الأرقم، وكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، فعلمه عثمان بن طلحة، فأعلم أهله، فأوثقوه!! فلم يزل محبوساً إلى أن هرب مع من هاجر إلى أرض الحبشة[2].

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، المجلد الثالث، الجزء السادس، ص ١٠١.

إن الإيمان كان أقوى مما ظن به المشركون، ورغم أنهم بذلوا جهداً واضحاً للصد عن سبيل الله، واستخدموا وسائل التعذيب والتخويف وابتكروا أساليب جديدة للقهر والإذلال، إلا أن صبر الصحابة وتمسكهم بدينهم قد فاق كل التصورات، وجاوز كل الحدود، مما أوقع المشركين في حيرة لم يسبق لها مثيل في هذا المجتمع، ورغم التفنن في وسائل القمع الشنيعة والاستهتار بكرامة الإنسان والاعتداء على حقوقه لم يحققوا شيئاً من أهدافهم ومقاصدهم من تلك الحملة الشعواء.

إن ما سبق ذكره في الصفحات السابقة قطره من بحر والقصد منه هو ذكر أمثلة تكون نماذج لما حدث في مكة المكرمة من عسف وظلم لا مصوغ له وقع على أصحاب رسول الله ﷺ، ومما لا شك فيه أن هذا أصبح سبباً قوياً وعاملاً مهماً لهجرة الحبشة، لقد عز على رسول الله ﷺ أن يعيش في بلدة الحرام بحماية عمه أبي طالب، ورغم أنه عليه السلام لم يسلم من أذى المشركين بل أوذي في سبيل الله وامتهنت كرامته وضرب عليه السلام حتى فقد وعيه في بعض الأحيان إلا أن أبا طالب جند قومه للدفاع عن رسول الله ﷺ مما قلل نسبة الخطر تجاهه، وبمعنى آخر كان ينعم عليه السلام قدراً من الأمن والحماية لا يتوفر لمعظم أصحابه، وفي جو مليء بالكراهية الشديدة تسوده أحقاد موجهة ضد الإسلام، وأمام واقع مرير تعيشه طائفة من العصبة المؤمنة تتعرض للتعذيب صباح مساء يسمع الرسول ﷺ أخبارها ويتابع كل ما يحدث لها عن كثب فيتألم لأنه عاجز عن دفاعهم، وبين هذا وذلك كان الرسول ﷺ يتقلب في حزن عميق لا يفارقه وألم وحرقة دائمة لا يملك إلا الدعاء وهو سلاح قوي والصبر الذي لا ينفذ، وهو الرحيم بالمؤمنين قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

إنه ولي المؤمنين يتابع أحوالهم ويفكر في شئونهم بحزن ويفرح تبعاً

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

لأحـوالهم، فانـطلاقاً من هـذا أذن لأصحابـه الهجرة إلى الحبشـة ليقيموا فيهـا حتى يجعل الله فرجاً ومخرجاً مما هم فيـه، ويبدو أن مـا ذكر سـابقاً هـو السبب الأساسي للهجرة إلى الحبشة أما كيف تم ذلك وما ورد في هذا الشأن فيأتي في المباحث الآتية.